

الخيانة تنجح فيما عجزت عنه الأسلحة

كل نجاح فرنسي... تقف خلفه خيانة! نسال و الأرشيف يجيبنا

كثيراً ما يتم تناول شخصية الأمير عبد القادر في الذاكرة التاريخية الجزائرية كرمز للمقاومة والبطولة والنبيل. ومع ذلك، حين نحاول تفكيك اللحظات المفصلية في مسيرته، خاصة نهايتها، تظهر لنا خيوط خيانة متعددة، لم تأت فقط من العدو، بل من الحليف، ومن المحيط، وأحياناً من مكر السياسة الدولية.

مقال صحيفة نيويورك تايمز الصادر سنة 1873 لا يُعد فقط توثيقاً صحفياً عابراً، بل شهادة تاريخية حيّة كُتبت في وقت قريب من الأحداث، ومن طرف جهة لا مصلحة مباشرة لها في تلميع صورة الأمير أو تشويهها. ولذلك، فإن قراءته بعين تحليلية تمنحنا زاوية مختلفة، تحررنا من السرديات العاطفية أو الرسمية، وتدفعنا للتساؤل و محاولة ربط الخيوط لفهم أصل الحكاية، حكاية بداية الخيانة، خيانة الأمير عبد القادر.

في مقال صحفي لنينورك تايمز الصادر بتاريخ 1873/02/25 على الصفحة رقم 4 تم نشر الآتي:

يُعتبر عبد القادر من أكثر القادة مهارة ومن ألمع القادة العسكريين في هذا القرن، حتى في نظر أعدائه، ويبدو أنه يقترب الآن من نهاية مسيرته اللامعة. فعبد القادر مريض مرضاً شديداً، وسنّه المتقدم، إلى جانب معاناة ستة عشر عاماً من الحملات، لا يتركز مجالاً كبيراً للأمل في بقائه حياً لفترة طويلة.

بالمقارنة مع مغاننا، وسادوا، وسيدان، كانت تلك الأحداث كافية لإثبات أن تحت قيادة جندي بالفطرة مثل عبد القادر، كانت القبائل "الهمجية" في شمال إفريقيا قادرة على مجابهة نخبة قوات فرنسا. فقد كان عبد القادر في الأصل أميراً أو زعيماً لقبيلة بدوية صغيرة، لكنه، في سن الثالثة والعشرين، رفع نفسه إلى مقام السلطة العليا على اثنين وثلاثين قبيلة. ومن عام 1832 إلى 1848، خاض، باستثناء فترات قصيرة، صراعاً مستمراً ضد الغزاة الفرنسيين للجزائر.

وفي إحدى المرات، كان على رأس جيش قوامه 50,000 رجل، وفي مرة أخرى تمكن من إقناع إمبراطور المغرب بالانضمام إليه في حرب مقدسة ضد الكفار. وقد أرسل أفضل الجنرالات الفرنسيين لمحاربته، لكنه هزم مراراً في معارك مباشرة. وحتى حين كان يُهزم، لم يكن أقل خطورة، إذ كان يظهر فجأة في أماكن غير متوقعة على رأس فرقة صغيرة من فرسان العرب، ويضرب بسرعة وقوة، ثم يختفي مجدداً في الجبال.

وكانت هزيمته النهائية لا ترجع إلى براعة القوات الفرنسية، بل إلى مكر حليف خائن هو إمبراطور المغرب، الذي، بعد أن أغرى العديد من أتباع عبد القادر بالخيانة، دفعه أخيراً بقوة الأعداء إلى عبور الحدود الفرنسية. أما الفرنسيون، الذين لم يكونوا في ذلك الحين يتوقعون عن شجب خيانة الإنجليز لنابليون الأول، فلم يترددوا في معاملة الزعيم المغربي بخيانة مشينة.

فقد سلم عبد القادر نفسه للجنرال لاموريسيار على شرط صريح أن يُرسل إلى مصر أو إلى سان جان دارك، وقد وُقّع اتفاق الاستسلام من قبل الحاكم العام للجزائر، دوق أومال. لكن الجنرالات الفرنسيين فضلوا السلامة على الشرف، ولكي يضمنوا أن الأمير لن يسبب لهم المزيد من المتاعب، نقضوا وعدهم وأرسلوا أسيرهم إلى فرنسا. وهكذا، وصل البطل المغدور إلى فرنسا في 29 يناير 1848، ولم يجرؤ لا لويس فيليب ولا جمهورية فيراير على رد الاعتبار الوطني بإطلاق سراحه.

وقد بقي سجيناً حتى ديسمبر 1852، حين منحه الإمبراطور نابليون الثالث حريته بشرط ألا يعود إلى الجزائر أو يحمل السلاح ضد الفرنسيين مرة أخرى. ومنذ ذلك الحين، عاش في المشرق، واستقر مؤخراً في دمشق، حيث تميز قبل بضع سنوات بحمايته للمسيحيين من عنف الغوغاء.

لقد أكسبه تألقه في الميدان إعجاب العالم منذ زمن بعيد؛ وإذا كان لا يزال يحمل شيئاً من الضغينة ضد الشعب الذي عامله بمثل هذه الخيانة الجبانة، فقد انتقم له الزمن بما فيه الكفاية بهزيمة لاموريسيار المهينة في إيطاليا، وبهزيمة فرنسا على يد الجيوش الألمانية.

فالرجال العظام ليسوا بكثرة بحيث يمكننا أن نخسرهم دون أن نقول كلمة. فإذا كان أن تكون وطنياً متحمساً، وجندياً لا يُشك في عيقرته، وشريعاً لا تشوبه شائبة؛ ورجل دولة استطاع أن يوحد قبائل إفريقيا المتناحرة في جيش قوي؛ وبطلاً يقبل الهزيمة والمحن دون تدمير — إذا كانت هذه هي مقومات العظمة، فإن عبد القادر يستحق أن يُصنّف ضمن أعظم رجال القرن بلا منازع.¹

كانت هذه ترجمة للمقال، وسأعود إلى مصدر آخر لفهم أعمق لأصل حكاية الخيانة.

سأتناول في هذا العرض موضوعاً نادر الطرح، يتعلق ببعض التحالفات التي ساهمت في إضعاف الأمير عبد القادر، وهو ما يستوجب علينا الرجوع إلى التاريخ وقراءته بموضوعية. وكعادتي، أحاول دوماً الابتعاد عن العاطفة، وأستند إلى وثائقهم، وخاصة أرشيف فرنسا.

من بين أبرز الأسماء التي تظهر في هذه الوثائق، نجد اسم حليفين اثنين، لولا دعمهما، لما تمكنت فرنسا من بسط سيطرتها، ولما استطاعت النيل من الأمير عبد القادر، وهذا باعتراف جنرالات فرنسا أنفسهم.

أحد هذين الحليفين هو مصطفى بن إسماعيل، الذي منحه فرنسا رتبة "جنرال"، والثاني هو الجنرال يوسف ماري إدوار. وقد كان لكلا الرجلين دوراً محورياً في تفكيك صفوف المقاومة الشعبية.

سأركز في هذا السياق على شخصية مصطفى بن إسماعيل، كونه أحد العوامل الأساسية التي ساهمت في إضعاف جيش الأمير عبد القادر.

مصطفى بن إسماعيل: شخصية مثيرة للجدل بين الولاء والتقلبات السياسية.

تشير الوثائق التاريخية إلى أن مصطفى بن إسماعيل كان شخصية نافذة ومؤثرة قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830، وكان حينها قد تجاوز الستين من عمره. وقد سُجِّل له ولاؤه العميق للسلطة الجزائرية، ولعب دوراً محورياً في التصدي لأطماع المغرب في الغرب الجزائري.

أطماع المغرب وتدخل مصطفى:

في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، ومع تزايد التوغل الفرنسي في الجزائر، حاول سلطان المغرب استغلال الفراغ السياسي لتعزيز نفوذه، خاصة في منطقة وهران. غير أن مصطفى بن إسماعيل، الذي ظل وفياً للسلطة الجزائرية رغم تراجعها، تصدى لهذا التوسع المغربي بكل حزم.

محاولة التحالف مع المغرب:

أمام تصاعد الضغط الفرنسي، سعى مصطفى بن إسماعيل إلى بناء تحالفات لمجابهة العدو المشترك. فتوجّه إلى سلطان المغرب آملاً في الحصول على دعم سياسي وعسكري. استجاب السلطان المغربي لهذه المبادرة بدافع إضعاف فرنسا، لكن هذا التحالف لم يدم طويلاً؛ إذ سرعان ما تم اعتقال مصطفى من قبل السلطات المغربية، ونُقل إلى مدينة فاس. وعلى الرغم من ذلك، استقبله السلطان باحترام في خطوة اتسمت بالحدس السياسي، وهدفت إلى إبقاء قنوات التواصل مفتوحة دون تصعيد.

شهادة فرنسية لافتة:

وثّق أرشيف فرنسا شهادة الجنرال فرديناند والسان إيسترهازي، أحد الضباط الفرنسيين في الجزائر، حيث عبّر عن إعجابه الشديد بمصطفى بن إسماعيل. وأكد أن مصطفى، رغم التحديات، أظهر ولائاً واضحاً لفرنسا. كما أشار إلى خبرته الواسعة، وحنكته السياسية، ومعرفته الدقيقة بالمنطقة وسكانها، مما جعله حليفاً نادراً وثنياً. وفي خلاصة شهادته، وصفه بأنه رجل ذو كفاءة عالية ونزاهة، وكان أحد عوامل نجاح العمليات العسكرية الفرنسية في الجزائر.²

¹ The New York Times dated February 25, 1873 page 4

<https://timesmachine.nytimes.com/timesmachine/1873/02/25/79035032.html?pageNumber=4>

² 1930 les grands soldat de l'Algérie. Page 40

<https://alger50.org/alger50new/images/alger-ouvrages/1930-les-grands-soldats-de-l-algerie.pdf>

الصراع مع الأمير عبد القادر:

بدأ نجم الأمير عبد القادر في اليروز سنة 1832، بعد أن بايعته قبائل الغرب الجزائري أميرًا وقائدًا للمقاومة. هذا الصعود السريع لم يكن في صالح مصطفى بن إسماعيل، لا سيما أن الأمير كان شابًا في الثالثة والعشرين من عمره، بينما بدأ نفوذ مصطفى يتلاشى تدريجيًا. شعر أن سلطته مهددة، فاختار مغادرة الجزائر نحو المغرب، وهناك بدأت المواجهة المفتوحة بين الرجلين.

جذور العداء:

تعكس العداء بين مصطفى بن إسماعيل والأمير عبد القادر الصراع الداخلي بين تيارين: مصطفى كان يمثل بقايا النظام القديم، في حين سعى الأمير عبد القادر إلى بناء دولة إسلامية موحدة قائمة على الشريعة والجهاد والمقاومة.

التحالف مع فرنسا:

في سياق رغبته بالحفاظ على مكانته، تحالف مصطفى مع القوات الفرنسية ضد الأمير عبد القادر. وقد اعتُبر هذا التحالف من قبل العديد من المؤرخين خيانة للمشروع الوطني الجزائري، وأسهم بشكل مباشر في إضعاف المقاومة.

المواجهات العسكرية:

ما بين عامي 1834 و1835، رفض مصطفى تسليم مدينة تلمسان إلى الأمير عبد القادر، وتعاون مع الفرنسيين عسكريًا، مما كان له دور غير مباشر في تطورات معركة "المقطع" عام 1835، حيث ألحق الأمير هزيمة كبيرة بالقوات الفرنسية. هذه الهزيمة زادت من عزلة مصطفى السياسية وأضعفت موقعه مجددًا. وبعد انهيار تحالفه مع المغرب، تم أسره ونُقل مجددًا إلى فاس.

نهاية الصراع :

استمرت الخصومة بين الرجلين حتى أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر. وتشير بعض الروايات إلى أن مصطفى بن إسماعيل أعدم، وأن رأسه أرسل إلى الأمير عبد القادر كدليل على الانتصار، في نهاية مأساوية تعكس تقلبات المرحلة وتعقيداتها.

MARDI 25 FÉVRIER 1873

ons" of the
a limited as
ment. Every
on, transfer,
-are "trans-
ded that all
week at the
ish the pur-
rovided that
ment should
There are
h might be
have named
oad, would
or which it
e metropoli-
ot entirely
ol.

this subject
at upon this

sure of increased popular appreciation, and, as we believe, enriched treasuries. It will not answer for New-York long to continue entirely dependent on Paris and London for her "society comedy," and, if we mistake not, a change for the better in this direction is not far away.

Abd-el-Kader.

One of the ablest rulers and most brilliant captains of the century, if the estimates made of him by his enemies be correct, is now, in all probability, approaching the end of his stormy career. ABD-EL-KADER is dangerously ill, and his advanced age, and the hardships of sixteen years of campaign life, leave little room for the anticipation that he will long survive.

The wars of the last twenty years, so destructive of life and so important in their

the straightforward Italian soldier. Undoubtedly that a Spanish general, and possibly he, could have done it is unfair to attribute his whole record show to make him appear THIER'S' childish habits with a threat of

The first anniversary of the New-York Canoe Club and the prosperous course well for the future of this country. The club from England drawing models that have been canoe-builders, and it a improvements which have in building and rigging

parison with Magenta, Sadowa, and Sedan, they were sufficient to demonstrate that under the leadership of a born soldier, like **ABD-EL-KADER**, the barbarous tribes of Northern Africa were able to cope with the picked troops of France. Originally the Emir or chief of a small Bedouin tribe, **ABD-EL-KADER**, at the age of twenty-three, raised himself by the mere force of his native genius to the supreme authority over thirty-two tribes. From 1832 to 1848 he maintained, except at brief intervals, a continuous struggle with the French invaders of Algiers. At one time he was at the head of an army of 50,000 men, and at another contrived to induce the Emperor of Morocco to join him in the holy war against the infidels. The best French generals were sent against him, but he repeatedly defeated them in pitched battles. When defeated himself, he was hardly less dangerous than when victorious, for he would appear in unexpected places at the head of a small band of Arab horsemen, and striking swift and hard, would vanish again into the mountains. His final defeat was due, not to the prowess of French arms, but to the cunning of his traitorous ally the Emperor of Morocco, who, after having induced many of **ABD-EL-KADER's** adherents to desert him, finally drove him by force of numbers, over the French frontier.

The Frenchmen, who were at the time never weary of denouncing the perfidious conduct of the English toward NAPOLEON I., did not hesitate to treat the Moorish chieftain with shameful treachery. He surrendered to LAMORICIERE upon the express condition that he should be sent to Egypt or St. Jean d' Acre, and the capitulation was signed by the Governor-General of Algiers, the Duke D'AUMALE. The French Generals, however, preferred safety to honor, and, in order to make sure that the Emir would give them no further trouble, broke their plighted word, and sent their prisoner to France. The betrayed hero landed in France, on the 29th of January, 1848, and neither LOUIS PHILIPPE nor the Republic of February ventured to redeem the national honor by releasing him. He was kept a prisoner until December, 1852, when the late Emperor NAPOLEON III. gave him his liberty upon the conditions that he should never again visit Algiers or take up arms against the French. Since then he has resided in the East, and latterly has made his home in Damascus, where a few years since he distinguished himself by protecting the Christians against mob violence. The nobility of his character, no less than the brilliancy of his exploits in the field, long ago won for him the admiration of the world; and if he still cherishes any resentment against the people that treated him with such cowardly treachery, he has been amply avenged by the humiliating defeat of LAMORICIERE in Italy, and the conquest of France by the German armies.

Great men are not so abundant that we can afford to lose them without a word. If to be an ardent patriot, a soldier whose genius is unquestioned, and whose honor is stainless; a statesman who could weld the wild tribes of Africa into a formidable army, and a hero who could accept defeat and disaster without a murmur—if to be all these constitutes a great man, **ABD-EL-KADER** deserves to be ranked among the foremost of the few great men of the century.

Abd-el-Kader

One of the ablest rulers and most brilliant captains of the century, if the estimates made of him by his enemies be correct, is now, in all probability, approaching the end of his stormy career. **ABD-EL-KADER** is dangerously ill, and his advanced age, and the hardships of sixteen years of campaign life, leave little room for the anticipation that he will long survive.

The wars of the last twenty years, so destructive of life and so important in their results, have nearly obliterated the memory of the petty campaigns in Algiers, wherein the army of LOUIS PHILIPPE gained its whole knowledge of actual warfare, and the French Generals of the last generation won their laurels. And yet, insignificant as the Algerian battles now seem, in com-

CAHIERS DU CENTENAIRE de l'Algérie

- I. L'Algérie jusqu'à la pénétration Saharienne.
- II. La pacification du Sahara et la pénétration Saharienne.
- III. L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930.
- IV. Les Grands Soldats de l'Algérie.
- V. Le Gouvernement de l'Algérie.
- VI. L'art antique et l'art musulman en Algérie.
- VII. L'Algérie touristique.
- VIII. Les liaisons maritimes, aériennes et terrestres de l'Algérie.
- IX. Les productions algériennes.
- X. La vie et les mœurs en Algérie.
- XI. La France et les œuvres indigènes en Algérie.
- XII. Cartes et Index.

IMPA. PIGELET & C^{ie} ORLÉANS

CAHIERS DU CENTENAIRE DE L'ALGÉRIE

IV

LES GRANDS SOLDATS de l'Algérie

PAR

M. le général Paul AZAN



PUBLICATIONS DU COMITÉ NATIONAL MÉTROPOLITAIN
DU CENTENAIRE DE L'ALGÉRIE

CHAPITRE IV

LES INDIGÈNES

Mustapha ben Ismaël, Yusuf, Abd el Kader

Les Indigènes, pour désigner par ce nom tous les descendants d'Arabes, de Kabyles et même de renégats chrétiens, plus ou moins mélangés entre eux, ont rendu de grands services à la France, de même que les Turcs, leurs anciens maîtres et les Koulouglis, fils de Turcs et de femmes indigènes. Certains d'entre eux, comme Mustapha ben Ismaël et Yusuf, sont devenus généraux dans l'armée française, tandis que d'autres ont garni les cadres inférieurs des régiments indigènes. Enfin, parmi ceux qui ont été longtemps adversaires déclarés de la France, le plus célèbre, Abd el Kader, est devenu son admirateur et son serviteur, après une défaite pleine de grandeur.

*
* *

Le général Mustapha ben Ismaël

Mustapha ben Ismaël était l'un de ces grands chefs indigènes qui, du temps de la puissance turque, commandaient les tribus Maghzen, c'est-à-dire les tribus au service du gouvernement. Les Turcs, qui ne pouvaient, en raison de leur petit nombre, dominer toute la Régence par eux-mêmes, accordaient à ces tribus des avantages spéciaux, en échange de leur participation à la levée des impôts, aux expéditions et à la police générale.

Déjà âgé d'une soixantaine d'années en 1830, Mustapha ben Ismaël était l'agha des Douairs et des Smela, qui constituaient le Maghzen d'Oran. Toute sa vie s'était passée en chevauchées et en luttes, dans lesquelles son courage, sa

vigueur physique et son ascendant sur ses cavaliers lui avaient acquis un prestige incomparable.

Lorsqu'au mois d'août 1830, les troupes françaises vinrent occuper Oran, il essaya, avec les grands du Maghzen, d'entrer en relations avec leurs chefs ; mais les Français, à cette époque, ignorant profondément l'organisation de la Régence et le rôle de ses divers organes, les repoussèrent comme ayant eu des contacts avec leurs ennemis les Turcs.

Le général Walsin-Esterhazy, qui par la suite eut l'occasion de bien connaître Mustapha ben Ismaël, et qui lui succéda à la tête du Maghzen d'Oran, a écrit plus tard :

« Que de choses n'avait-il pas à nous apprendre, si nous eussions daigné alors écouter son avis ; que de fautes n'eût-il pas épargnées à notre inexpérience, ce vieillard blanchi dans la pratique d'une guerre que nous connaissions à peine, et dans l'exercice d'un commandement, qui nous était alors complètement étranger ; lui, qui avait occupé si longtemps les hautes fonctions d'agha, dans ces temps de décadence de la puissance turque, où il avait eu souvent à déployer, contre les tribus révoltées, toute l'énergie militaire que nous lui avons connue depuis ! »

Le Sultan du Maroc, profitant de la confusion qu'occasionnait dans les tribus la venue des Français, essaya de mettre la main sur l'Ouest de la province d'Oran. Mustapha ben Ismaël, ayant fini par se rallier à son représentant, fut néanmoins arrêté traîtreusement et envoyé en captivité à Fez. Le Sultan, désapprouvant pareille conduite, eut l'adresse de traiter Mustapha et ses compagnons avec beaucoup d'égards, et s'en fit ainsi un allié.

C'est alors que, en 1832, le jeune Abd el Kader fut proclamé Sultan par les tribus des environs de Mascara. Mustapha consentit à le laisser reconnaître par les Douairs et Smela, mais sans vouloir aller lui-même lui rendre hommage. Il ne pouvait y avoir que sourde hostilité entre les partisans du jeune homme pieux élevé au pouvoir au nom de la religion, et les cavaliers du vieil agha qui avait été le seigneur du pays au nom des Turcs. Aussi, après quelque temps de collaboration indirecte Mustapha décida d'émigrer au Maroc avec ses tribus ; ayant rencontré Abd el Kader et ses partisans dans les environs de Tlemcen, il fonça sur eux, et les défit si complètement qu'il s'empara des tentes, des drapeaux, de la musique, des bagages de l'Emir el Moumenin (Commandeur des Croyants), et que ce dernier faillit lui-même être pris.

Mustapha crut que l'occasion était bonne pour s'entendre avec les Français d'Oran, qui avaient jusque là accueilli ses



D'après Chassériau
(Musée de l'Armée, salle d'Aumale)

MUSTAPHA BEN ISMAËL

Né à El-Amriyah (Lourmel) vers 1769
Général de brigade le 29 juillet 1837
Commandeur de la Légion d'honneur le 5 février 1842
Tué le 23 mai 1843 à El Bouda (province d'Oran)

avances avec froideur. Mais le général Desmichels, qui avait signé un traité avec Abd el Kader, mit les émissaires de l'agha en prison, et envoya à l'Emir 400 fusils et de la poudre ! Mustapha ben Ismaël constata, d'autre part, que le Sultan du Maroc, sensible au prestige religieux de l'Emir, ne manifestait plus à son égard la même sympathie. Vers qui pouvait-il dès lors se tourner ? Après un nouveau combat avec Abd el Kader, dans lequel il fut vaincu, il tenta une entrevue avec lui ; mais il ne put se résoudre à s'humilier devant ce jeune homme de sainte éducation, et déclara qu'il préférerait vivre avec les Turcs, qu'il avait toujours servis. Il alla, suivi de 50 ou 60 familles des Douairs et Smela, s'enfermer dans le Mechouar de Tlemcen avec les Koulougis.

Abd el Kader donna aux Douairs et Smela un autre agha et leur interdit toute communication avec les Chrétiens d'Oran. Des infractions à cette interdiction, ayant été commises, Abd el Kader voulut sévir ; mais les tribus se soulevèrent contre lui, et, à l'exception d'un petit groupe, se placèrent sous la protection du général Trézel, successeur de Desmichels à Oran. Le Maghzen se trouvait en quelque sorte reconstitué au profit des Français, et participa à l'expédition du maréchal Clauzel sur Mascara par un contingent de 500 cavaliers et de 800 chameaux de transport.

Lorsque Mustapha ben Ismaël fut enfin délivré, par l'expédition de Clauzel sur Tlemcen, du siège qu'il subissait dans le Méchouar, il dit au Maréchal : « En te voyant, j'oublie mes malheurs passés, je me confie à ta réputation. Nous nous remettons à toi, moi et les miens, et tout ce que nous avons ; tu seras content de nous, » Il tint parole, car il reprit dès lors la lutte contre Abd el Kader, éclairant et couvrant les colonnes françaises à la tête de ses cavaliers Douairs et Smela.

En avril 1836, il accompagna le général d'Arlanges, qui avait reçu ordre du maréchal Clauzel d'aller d'Oran à la Tafna, et d'assurer la liaison de Rachgoun à Tlemcen ; il lui donna les conseils que lui dictait son expérience, mais il ne put l'empêcher d'aller se heurter dans les montagnes aux masses kabyles animées par Abd el Kader, et de se faire acculer à la mer au camp de la Tafna. Il se conduisit admirablement au cours de ces journées, où tombèrent nombre de ses cavaliers. Bugeaud étant arrivé avec des renforts, Mustapha prit une part brillante au combat de la Sikkak où Abd el Kader fut battu ; il y fut grièvement blessé d'une balle à la main.

En concluant l'année suivante avec Abd el Kader le traité de la Tafna, Bugeaud eut la faiblesse d'abandonner à l'Emir non seulement le Méchouar de Tlemcen, où avaient tenu si longtemps Mustapha ben Ismaël et les Koulougis, mais le territoire même des Douairs et Smela, la plaine de Mleta ; il reconnaissait d'ailleurs formellement le pouvoir de l'ennemi de la France. Mustapha, en recevant connaissance de ce traité, n'éleva pas de protestation ; il se borna à dire : « Vous savez mieux que moi ce qui vous convient, mais j'estime que vous commettez une faute que vous ne tarderez pas à regretter. » Les événements ne devaient que trop justifier cette appréciation, puisqu'Abd el Kader, après avoir organisé ses forces, reprit les hostilités en novembre 1839.

L'attitude prise, dans la province d'Oran, contre le représentant d'Abd el Kader, Bou Hamedi, était défensive, lorsque l'arrivée du général de La Moricière dans la province, puis de Bugeaud comme gouverneur en mai 1841, modifièrent le caractère de la lutte. Le vieil agha, qui avait reçu le grade de général français, prit part dès lors, avec ses cavaliers, aux expéditions de la colonne de La Moricière, jouant en bien des circonstances un rôle important. Il accompagna cette division, à la tête d'un goum de 600 cavaliers, à l'expédition de Bugeaud en mai 1841 contre Tagdempt et Mascara.

C'est avec La Moricière aussi que, en juillet 1842, il atteignit, en poursuivant Abd el Kader vers le sud, le village de Goudjilah, vrai nid d'aigle où l'Emir avait porté les approvisionnements qu'il avait pu sauver de Tagdempt. Dans cette circonstance, le général Mustapha manifesta la joie la plus sincère : monté au point le plus élevé de la montagne, d'où il découvrait au nord le Tell, et au sud à perte de vue les plateaux mamelonnés allant vers le Sahara, il s'écria : « Fils de Mahi ed Dine (Abd el Kader), ce pays ne peut pas être destiné à appartenir à un marabout (personnage religieux) comme toi, à un homme de Zaouïa (école religieuse). Enlevé par la conquête à ceux que j'avais servis toute ma vie, c'est à la nation qui a su leur arracher qu'il revient, et non pas à toi, qui n'avais fait que le voler. J'ai aidé de toutes mes forces les Français à reprendre leur bien, parce que moi, soldat, je ne pouvais obéir qu'à des soldats. Je les ai conduits jusqu'aux portes du Sahara. Je puis maintenant mourir tranquille. Justice complète sera bientôt faite de ta ridicule ambition. »

L'année suivante, en 1843, le général Mustapha était en

colonne avec La Moricière vers Tiaret, lorsque, le 19 mai, il apprit par un nègre fugitif la prise de la Smala par le duc d'Aumale, et la présence à quelques dizaines de kilomètres d'une nombreuse émigration qui fuyait le désastre. Il monta à cheval avec son goup et la cavalerie régulière atteignit les fuyards, et s'empara de nombreux prisonniers, de troupeaux, de chameaux et de bagages.

Voulant revenir à Oran avec ses prises, le général Mustapha se sépara de La Moricière pour traverser seul avec ses cavaliers le territoire des Flitta. Attaqué par une cinquantaine de piétons, dans un défilé boisé où ses chevaux et mulets surchargés de butin encombraient le passage, il s'élança pour rétablir l'ordre ; mais il fut frappé d'une balle qui l'étendit mort, ce que voyant, ses cavaliers atterrés se débandèrent. Ses agresseurs apprirent, par la mutilation que lui avait faite à la main droite la balle reçue à la Sikkak, qu'ils avaient tué Mustapha ben Ismaël. Sa tête et sa main furent portées à Abd el Kader, qui, voulant affecter quelque générosité vis-à-vis de son ennemi disparu, fit ensevelir ces sinistres trophées au lieu de les exposer, suivant la coutume d'alors.

Mustapha ben Ismaël tombait, à près de 80 ans, laissant une impression profonde à tous ceux, Français et Indigènes, qui l'avaient connu. Cet homme d'épée, ce soldat magnifique au combat, avait su se faire apprécier aussi par son esprit d'équité, au point d'avoir mérité, sous le règne des Turcs, le surnom de Mustapha-el-Haq (Mustapha la justice).

C'était un homme d'une absolue loyauté, sur qui le général Walsin-Esterhazy écrivait : « Il avait donné sa parole à la France, et jamais, dans les circonstances qu'il eut à traverser avec nous, malgré les dégoûts dont il fut parfois abreuvé, son expérience des hommes et des choses du pays, son dévouement dans les combats, sa coopération dans les conseils, ne nous firent défaut toutes les fois qu'on voulut bien les invoquer. Les hommes de la trempe et du caractère de Mustapha ben Ismaël sont trop rares, et de semblables types, même dans les grandes luttes de notre histoire, sont trop peu communs, pour qu'il ne convienne pas de chercher à appeler l'attention sur cette grande figure de nos petits démêlés africains. Il fut regretté par toute l'armée française.

Sa mort impressionna profondément les Indigènes. Ses cavaliers n'osèrent pas, pendant plusieurs semaines, repaître dans leurs douars, craignant la réprobation de leurs femmes pour leur conduite dans la funeste journée.

Une poésie, qui reflétait bien les sentiments indigènes, fut chantée dans toute la province d'Oran ; elle célébrait les vertus du héros disparu :

« Lorsqu'il s'élançait à la tête des goums, sur un coursier impétueux, l'animant des rênes et de la voix, les guerriers le suivaient en foule. Pleurons le plus intrépide des hommes, celui que nous avons vu si beau sous le harnais de guerre, faisant piaffer les coursiers chamarrés d'or. Pleurons celui qui fut la gloire des cavaliers... »

« Souvenez-vous du jour où il fut appelé à Fez par ordre du chérif : comme il brilla parmi les grands de la cour, plus grand par ses belles actions que tous ceux qui l'entouraient. On reconnut en lui le sang de ses nobles ancêtres, et, pour le lui témoigner, le chérif le combla d'honneurs... »
« Qu'il était beau dans l'ivresse du triomphe lorsque, sur le noir coursier du Soudan, à la selle étincelante de dorures, il apparaissait comme le génie de la guerre sur le dragon des combats !... Dieu est témoin que Mustapha ben Ismaël fut fidèle à sa parole jusqu'à la mort, et qu'il ne cessa jamais d'être le modèle des cavaliers. »

Le général Mustapha est le type indigène de « l'homme de poudre » le plus noble et le plus chevaleresque qu'on puisse citer, et, comme le dit le poète qui célébrait sa gloire, il fut « fidèle jusqu'à la mort à sa parole », qu'il avait donnée, à la France.

*
* *

Le général Yusuf

Le général Yusuf a eu une existence extraordinaire, qui n'aurait pas besoin, pour intéresser le lecteur aimant les vies romanesques, d'être déformée par des aventures issues de l'imagination de l'auteur ou par des dialogues créés par sa fantaisie.

Né en 1808 à l'île d'Elbe, qui était française depuis 1802, il fut pris en 1815 par un corsaire tunisien, sur un bateau qui l'emmenait à Livourne pour y faire ses études. Ses qualités physiques et intellectuelles le firent choisir pour entrer dans la garde du Bey, et il reçut à cet effet les leçons spéciales comportant la pratique du cheval et des armes ainsi que l'étude du Coran. Il eut alors l'occasion d'être le compagnon de jeux d'une fille du bey, la princesse Kaboura, sut plaire à l'enfant, si bien que plus tard, quand elle eût grandi et qu'il fût devenu mameluk, une intrigue se noua entre eux. Comme, au début de 1830, il manifestait son enthousiasme

pour le parti français qui s'était formé à Tunis, ses ennemis dévoilèrent cette intrigue, et il eût été assassiné, s'il n'avait été prévenu par la princesse ; aidé par les fils du consul de France, de Lesseps, il put fuir sur un bateau français.

Débarqué à Sidi Ferruch le 16 juin 1830, deux jours après le gros de l'armée expéditionnaire, il fut attaché par Bourmont comme interprète à son état-major. Nommé khalifa (adjoint), de l'agha des Arabes, il vendit pour une trentaine de mille francs les pierres précieuses des armes qu'il avait apportées de Tunis, équipa, avec cet argent quelques cavaliers indigènes et fit avec eux des razzias fructueuses.

Dans l'expédition de Clauzel sur Médéa, Yusuf se, conduisit admirablement ; il tua un chef turc qui l'avait blessé et lui prit son cheval, et se fit remarquer dans tous les combats. Clauzel, qui venait de créer un escadron de chasseurs algériens, y fit engager Yusuf et le nomma, le 2 décembre 1830, capitaine indigène à titre provisoire, grade qui fut confirmé quelques mois plus tard.

Dès lors, dans toutes les expéditions, Yusuf se montra si plein d'audace, d'initiative et d'endurance, qu'il devint rapidement légendaire dans l'armée d'Afrique. Lorsqu'il rentrait dans les camps avec ses cavaliers, « ses enfants » comme il les appelait, il était acclamé par les troupes françaises.

Sa réputation le fit désigner, au début de 1832 pour aller occuper, avec le capitaine d'Armandy, la Kasba de Bône ; il y risqua sa vie dans des conditions qui lui valurent une véritable célébrité, par son sang-froid et son énergie dans des circonstances tragiques, au point que le maréchal Soult qualifia cet exploit, dans un discours à la Chambre, de « plus beau fait d'armes du siècle ». Chargé ensuite de petites opérations autour de Bône, il y accomplit maintes prouesses qui lui valurent quatre citations à l'ordre de l'armée, la croix de la légion d'honneur et le grade de chef d'escadron du 3^e Chasseurs d'Afrique.

Lorsqu'en 1835, Clauzel fit l'expédition de Mascara, il appela Yusuf à son état-major, et fut séduit aussitôt par ses qualités : « Yusuf, écrivit-il au Ministre, est un homme des plus intrépides et des plus intelligents que je connaisse. Il est venu me joindre près de Mascara, après avoir traversé trente-cinq lieues de pays au milieu des Arabes qui nous suivaient pour nous combattre. »

Clauzel l'emmena avec lui à l'expédition de Tlemcen, et lui donna une nouvelle occasion de s'illustrer le 15 janvier 1836, à l'attaque du camp d'Abd el Kader. Yusuf, à



Lithographie d'Auguste Bry
(Bibliothèque du Musée de l'Armée)

Marie-Édouard YUSUF

Né en 1808 à l'île d'Elbe

Général de division le 18 mars 1856

Grand croix de la Légion d'honneur le 19 septembre 1860

Décédé le 16 mars 1866 à Cannes (Alpes-Maritimes)

